من زاوية تربوية:

عندما يغرد الإمام..

إعـــــــداد

أ.د/ خالد محمود محمد عرفان

عميد كلية التربية (بنين) بالقاهرة

عندما يغرد الإمام..

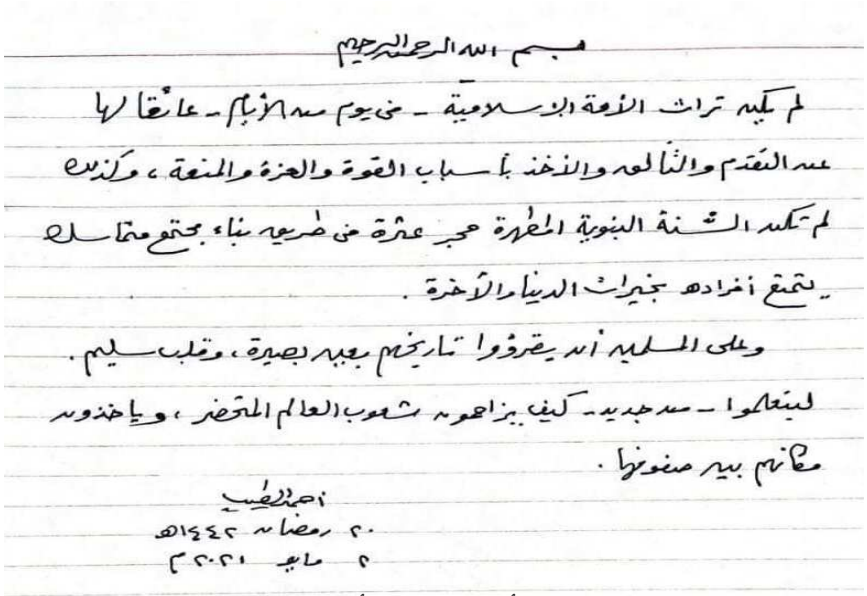
بسم الله الرحمن الرحيم
لم يكن تراث الأمة الإسلامية - في يوم من الأيام - عائقا لها
عن التقدم والتألق والأخذ بأسباب القوة والعزة والمنعة، وكذلك
لم تكن السنة النبوية المطهرة حجر عثرة في طريق بناء مجتمع متكامل
يتمتع أفراده بخيرات الدنيا والآخرة.
وعلى المسلمين أن يقرؤوا تاريخهم بعين بصيرة، وقلب سليم.
ليتعلموا - من جديد - كيف يزاحمون شعوب العالم المتحضر، ويأخذون
مكانهم بين صفوفها.
أحمد الطيب
٢٠ رمضان ١٤٤٢هـ
٢ مايو ٢٠٢١م

عندما يغرد الامام الأكبر شيخ الأزهر حول موضوع ما فإن هذا يعني أن الموضوع مهم للغاية، وأن الأمر جلل ..ففي الوقت الذي تنهال فيه الاتهامات على التراث الإسلامي بأنه السبب وراء غياب المجتمعات الإسلامية عن التطوير والحداثة ومواكبة العالم.. وغير ذلك من الادعاءات كالتعصب والانغلاق والارهاب؛ جاءت تغريده فضيلة الامام الأكبر في عبارة موجزة مؤثرة رغم قصر جملها وقلة عدد كلماتها إلا انها أقامة الحجة بأن التراث الإسلامي بريء من ذلك براءة الذئب من دم ابن يعقوب، وردت ردا حاسما على ادعاءاتهم، وأبطلت حججهم ؛ وبينت جهلهم به ، وقراءتهم غير الصحيحة له، فدعاهم الى الوقوف أمامه وقراءته بشكل صحيح واع؛ لنأخذ منه اسباب التقدم والتحضر بدلا من الهجوم عليه.

إن السبب الحقيقي وراء ما يعانيه العالم الإسلامي الآن هو البعد عن هذا التراث أو قراءته قراءة غير صحيحة ؛ حيث غابت أو غيبت المؤسسات الدينية وأصبحت الساحة الدعوية مفتوحة لكل من هب ودب من الأميين وأنصاف المتعلمين الذي قاموا بقراءة القرآن والسنة وآراء الفقهاء قراءة غير صحيحة نتج عنها التعصب للمذهب والرأي وظهور جماعات وفرق متشددة تحت مسميات ما أنزل الله بها من سلطان، تدعي كل واحدة منها بأنها الفئة التي لم يمن الله على غيرها بالإيمان، وأما الباقون فمشكوك في عقيدتهم ..وهذا ما دفع هؤلاء المنتقدين الى الهجوم على التراث الإسلامي.

بينما الحقيقة والإنصاف هي أن هذا التراث الإسلامي الرائع هو نفسه الذي نقل العرب من البداوة والتخلف الى مصاف الأمم ؛بل هو التراث عينه الذي بني عليه الغرب حضارته الحالية.. وأن العرب والمسلمين لم يتخلفوا عن ركب الحضارة إلا بعد تخليهم او تجاهلهم لهذا التراث أو جزء كبير منه أو قراءتهم غير الصحيحة له.

إننا إذا دققنا النظر في حضارة الغرب التي ننبهر بها اليوم نجد أنها الجزء الإجرائي للتراث الإسلامي بمصادره واجتهادات علمائه ..فالأمم كلما تحضرت وتقدمت كلما التقت مع الإسلام حتى ولو لم تكن أمة مسلمة؛ فالإسلام ليس عقيدة فقط؛ بل عقيدة ونظام حياة .. وبعد أن كان المسلمون يأخذون بالاثنين معا أخذوا اليوم الإسلام عقيدة ونسوا أو تناسوا أن الاسلام لا يقوم إلا بالاثنين معا العقيدة والحياة.

إن الدعوة الى التخلي عن سنة رسول الله واجتهادات العلماء السابقين دعوة غير سوية وخبيثة؛ لأن السنة هي وحي من الله جاء يفصل ما أجمل، ويطبق ما شرع في كتاب الله..فكيف نعرف الوضوء والغسل والصلاة والحج والزكاة بدون السنة وشروح الفقهاء؟!

كما أن اجتهادات الفقهاء جاءت لتقدم حلولا للكثير من القضايا التي واجهت المجتمعات المسلمة عبر العصور من خلال اجتهادات رائعة في دائرة النصوص القرآنية والنبوية الشريفة؛ فكانت ولا تزال علاجا ناجعا لمشكلاته.

إن البحث وراء هذه الدعوات نجد أنها تأتي من فريقين:

الأول: فريق اكتوى بنار القراءة غير الصحيحة للتراث الإسلامي من قبل غير المتخصصين ممن تصدوا لأمر الدعوة؛ فعانت مجتمعاته من التعصب للمذهب وأحيانا لفقيه واحد، ونتج عن ذلك جماعات متشددة..

وهؤلاء علينا أن نحاورهم ونستمع لهم ونوضح لهم ونتعاون معهم في علاج هذه المشكلة من خلال تفعيل المؤسسات العلمية الدينية واعداد العاملين فيها إعدادا جيدا وتجريم من يعمل في مجال الدعوة بدون دراسة علمية صحيحة .. وما الفضائيات ومنابر الزوايا البعيدة عن الأوقاف إلا دليل على ذلك.

الفريق الآخر:

فريق يهاجم التراث الإسلامي لخلل فكري أو نفسي؛ فهو يسعى من وراء ذلك لتحقيق مكاسب خادعة كالشهرة وارضاء الغرب ، فتستر تحت مسميات التحضر والمدنية والتطور وحقوق الانسان وحقوق المرأة ..وغيرها .. و هؤلاء سيمضون وتمضي هجماتهم ادراج الرياح ، قال تعالى " **أما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض**"

وعلى الجانب الآخر فإنه يجب علينا_ خاصة الأزهر الشريف -أن ننظر في هذا التراث بمزيد من التنقيح لا سيما آراء الفقهاء التي لا يصلح بعضها لهذا العصر بينما كانت مناسبة للعصر الذي قيلت فيه ، وأن تقتصر دراستها كتراث فقهي على الدراسات العليا فقط؛ فنجمع وننقل ونصنف وننقح ،ونضيف من المباحث الفقهية المزيد لحاجة العصر إليها مثل مباحث عن المرأة وحقوق الطفل وتقنيات العصر وغيرها من المباحث التي يتم تناولها ضمنا في كتب الفقه، وعلى علماء الدين ان يتصدوا لها بشكل مؤسسي ومنهجي بعقلية مفتوحة وفكر مستنير مستندين إلى كتاب الله وسنة رسوله ومنهج الفقهاء السابقين، وقد أورد فضيلة الامام في هذا المجال ونوه الى أكثر من عشرين موضوعا ؛ كل موضوع منها يصلح مبحثا فقهيا جديدا يحتاج إليه العصر، وتصبح هذه القضايا والموضوعات بداية لتأسيس مدرسة أو مذهب فقهي جديد تحت عنوان: " الفقه الإسلامي المعاصر " والذي يمكن من خلاله جمع شتات الأمة في بوتقة فكرية واحدة ، تقرب بين مذاهبه ومجتمعاته المتنوعة والتي أصبحت الآن بفضل التقنيات قرية صغيرة على أن يشارك في هذا المذهب أو المدرسة الفقهية علماء من مختلف المذاهب والبلدان والعلوم المختلفة كالطب والصيدلة والهندسة والزراعة والتربية .. بحيث يتم تناول القضايا من جميع الزوايا؛ فيأتي الرأي الفقهي فيها أكثر دقة ومناسبة لمختلف المجتمعات المسلمة المعاصرة وأكثر اتساقا مع المجتمع العالمي.

إن الدعوة إلى تأسيس هذا المذهب الفقهي المعاصر أو المدرسة الفقهية المعاصرة ليس أمرا مبتدعا؛ فقد أسس لمثلها الامام أبو حنيفة رضي الله عنه؛ حيث كان يعرض أي مسألة يطلب فيها رأي الدين على أربعين عالما ، كل واحد منهم متخصص في علم من العلوم كي يصل من خلال تصوراتهم للرأي الفقهي السليم، وهو الذي كان يقول :" إذا جاءنا الحديث عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أخذناه، وإذا جاءنا عن الصحابة تخيرنا، وإذا جاءنا عن التابعين زاحمناهم "، وكان يرى أن أقوال التابعين غير ملزمة، وأن له حق الاجتهاد مثلهم، فكان يقول: " قوم اجتهدوا فاجتهد كما اجتهدوا"، ويقول : "هم رجال ونحن رجال".

إن المجتمعات تتغير وتتغير قضاياها ومشكلاتها وهذا يتطلب فكرا فقهيا جديدا واعيا، ونحن لدينا من العلماء والفقهاء من يتمتعون بالعلم والخبرة والعقلية التي تمكنهم من تأسيس مذهب ومدرسة فقهية معاصرة تتصدى لقضايا العصر ، وتقدم الرأي السديد كما فعل السابقون، وعلينا أن نقف أمام تراثنا العظيم ونعمل على التفكير في كيفية الانطلاق منه بحضارة معاصرة واعدة قادرة على مزاحمة الحضارات المعاصرة في أطر إسلامية نقية؛ فالذهب لا يرى جماله بغير عقلية مبدعة و يد حرفية ماهرة .

إن تحقيق هذه الغاية يحتاج الى عمل مؤسسي منظم قائم على تحديد الغايات، ووضع الآليات وخطط العمل، وتكوين الفرق العلمية المتميزة، وتقديم الدعم اللازم لنجاحها.

إن الإمام لا يغرد كثيرا؛ ولكن اذا غرد استمع المجتمع الإسلامي كله وأنصت، وفكر وتأمل، واستنبط وفهم، واتخذ قرارا ونفذ..

فالخطبة و النصح ليس بطول المقالة وعرضها، وإنما بدقة التعبير وصدقه.

وهكذا .. يكثر الحديث، وتتواصل التعليقات، وتكتب المقالات، وتتعدد الخطب " عنما يغرد الإمام"

د/ خالد عرفان

عميد كلية التربية بنين بالقاهرة